تقـديم

أ. د. حامد عمار

يسعدنى دوما أن تتكاثر الروافد فى مجرى سلسلة (آفاق تربويـــة متجـــددة) ، لتضيف مزيدا من الحيوية والخصوبة فى مياه النهر التعليمى ، ولتغدو طاقة محركـــة لحياة المجتمع نحو النماء والرخاء والعيش الكريم . وتظل السلسلة فى اختياراتها لمـــا تضمه من كتابات حريصة أشد ما يكون الحرص على التميـــز فيمـــا ينـــضاف إلـــى رصيدها ، وبخاصة فيما يثرى جهود تنمية الإنسان العربى ، بدنا ، وفكرا ، ووجدانا ، وتواصلا ، وقيما ، وانتماء.

وها نحن نقدم الكتاب الثانى للأستاذ الدكتور حسن شحاتة رئيس قـــسم المنـــاهج وطرق التدريس بكلية التربية فى جامعة عين شمس ، وعنوانه (مداخل إلـــى تعلـــيم المستقبل فى الوطن العربى) وقد كان كتابه الأول فى هذه السلسلة بعنـــوان (نحـــو تطوير التعليم فى العالم العربى) ومن ثم فإن الكتاب الجديد يمثل امتـــدادا لموجاتهـــا الفكرية التربوية ، وشمولا لخريطة التعليم فى الوطن العربى ، بتضاريـــسها الحاليـــة وتوجهات تصاميمها المستقبلية . وبالتقدير والثناء نشكر لـــه هذا الكتاب الثانى ، ونثق فى أنه سوف يلقى ترحيبا فى المكتبة العربية التربوية.

والكتاب يمثل جهدا قيما ضمن الكتابات المقتحمة لقضايا التعليم ، التى تـــشترك ساحة الوطن العربى فى ملامحها الرئيسية . وهموم التعليم تظل مع تيارات العولمـــة ومتغيراتها المتعددة وبخاصة منجزاتها العلمية والتكنولوجية مشغلة لمختلف الـــدول ، وعلى الأخص الدول النامية من بينها . وتنعكس هموم التعليم لدى المـــواطن ، وفـــى المؤسسة التعليمية ، وبين الرأى العام فيما يسود من قلق مختلف الأطراف المعنيـــة . وتتجلى تلك الهموم أحيانا فيما يسود من النقد والشكوى فى اللغة اليوميـــة ظـــاهرة ، إعرابا وتنفيسا ، كما تتهامس بها أحيانا أخرى فى لغة مستترة ، وجوبا وقهـــرا مـــن أحواله.

والحاجة ملحة لمعالجة قضايا تلك الهموم بكل صدق وجرأة واقتحـــام ، ضـــمن رؤية مستقبلية منظومية ، وفى إطار تنمية مجتمعية متواصلة ، تنشد الرخاء والعـــدل

والأمن والحرية . وتؤكد مفهوم (تربية الحرية) الذى يستند – فى رأى فيلسوف التربية البرازيلى باولو فريرى – إلى أربعة أعمدة : هى الأخلاق ، والقيم الإنسانية ، والوعى الناقد ، والديمقراطية ، والشجاعة المدنية التى تقاوم تقاليد التنميط ، وطمس الخيال ، وكبت القدرات الإبداعية ، واستقلالية التفكير لدى المتعلم والمعلم .

والاقتراب من قضايا التربية والتعليم فى هذا الكتاب يدور حول محورين أساسيين : هما المحور القومى على مستوى الوطن العربى ، ومحور التوجه نحو المستقبل . وقد اصبح وأضحى وأمسى المحور القومى ضرورة ملحة فى مواجهة تحديات التكتلات الاقتصادية والثقافية فى عدد من مواقع خريطة عالم اليوم ، والتى تمخضت عنها تيارات العولمة من أجل البقاء فى عالم من الصراع الحاد والتنافس الشديد . ومما لا مشاحة فيه أن التعليم يمثل أداة فاعلة وقوة هائلة فى تكوين العروة الوثقى من القيم والمعارف والمقاصد ، التى تدفع إلى تكتل الأقطار العربية ؛ لبناء جسم عربى متماسك ومتوافق فى المشاركة الإيجابية لتأسيس قوته الذاتية داخليا ، وفى قدراته التفاوضية خارجيا . وما قد جرى أخيرا من تشرذم فى كيان الأمة العربية التى يبلغ عدد سكانها حوالى (٣٠٠) مليون نسمة والذى يقترب من عدد من سكان الولايات المتحدة الأمريكية ، يفرض بالضرورة حتمية التماسك والتكتل ، وسط العواصف الحالية والمتوقعة من ضغوط الداخل ومخاطر التخلخل من المطامع الخارجية .

إن ما آلت إليه أحوال الأمة من ضعف المناعة وتدن فى مستويات معيشة مواطنيها يقدم أبلغ الدروس الحافزة على حتمية الرؤية ، من المنظور القومى العربى ؛ لتجاوز هذا الواقع نحو الأفضل والأكمل فى كثير من أنشطة التنمية العربية . والثروة البشرية التى يناط بالتعليم أن يكونها هى الملاذ والرهان المضمون على تحقيق الآمال المنشودة من منجزات التنمية.

والمحور الثانى الذى تدور حوله قضايا الكتاب الذى نحن بصدده ، هو محور المستقبل . والمستقبل بحكم منطقه يعنى التغيير والتطوير والمستهدف عاجلا وآجلا بصورة مقصودة . ومن ثم .. فإننا فى مواقف تفرض علينا أن نصنع هذا التغيير المستقبلى بإرادتنا ، قبل أن تجرفنا الأحداث والمتغيرات المعلومة والمجهولة نحو خيارات لا حول لنا ولا قوة فى التعامل معها ، وإلى فقر مادى وحضارى مهين ،

لا يلبث أن ينقلب إلى انتشار مظاهر العنف والفوضى والضياع . وتأسيسا على ضرورة الرؤية المستقبلية كإطار فى الفكر والعمل فى مختلف مجالات حياتنا ، يتناول هذا الكتاب تعليم المستقبل هدفا لما ينبغى أن تتشكل ، فى هديه ، سياسات مستقبل التعليم على الآفاق الزمنية القريبة والمتوسطة والبعيدة.

واستنادا إلى ما أشرنا إليه من رباعية الأعمدة وثنائية المحور ، يقدم لنا المؤلف أحدث وأفعل ما ورد فى أدبيات التربية من مداخل للتغيير والتطوير فى تعليم الأمة العربية ، خلال أربعة فصول . ومن عناوين تلك الفصول ومحتويات كل منها ، يدرك القارئ قيمة الزاد الفكرى التربوى المتجدد الذى يطرحه هذا الكتاب مستعينا فى ذلك بما يجرى من محاولات لتطوير التعليم فى بعض الأقطار العربية ، إلى جانب ما يجرى من مفاهيم وتصورات وأساليب وخبرات ، تطرحها أدبيات التربية الحديثة فى عالمنا المعاصر.

ومن ثم .. فإنه يحمد للمؤلف استدخاله وتوظيفه لتلك المفاهيم والتوجهات الجديدة فى معالجته لمداخل تعليم المستقبل فى الوطن العربى . ومنها على سبيل المثال منظور التخطيط الاستراتيجى للتعليم ، ومواقع أولوياته وشروط فاعليته ، وما يرتبط بذلك من صياغة السيناريوهات والبدائل ، وما يفرضه هذا النمط من التخطيط لها من الاستعانة بنظريات التعقد Complexity theory ، والمباراة Game ، والمفاجأة / الفوضى Chaos/surprise . بيد أن المؤلف لم يتسع له المجال للاهتمام المستحق بالسياق المجتمعى وقواه الاجتماعية وثقافته ، وبقيمه المحفزة أوالمقاومة لتوجهات التخطيط الاستراتيجى واحتياجاته .

ومن المفاهيم الجديدة إشارته إلى عمليات ضبط الجودة الشاملة أو الكلية Total Quality Control ، فى مختلف المكونات التى تتآلف منها المنظومة التعليمية ومحيطها البيئى والثقافى ، وما تتطلبه من معايير ومستويات تمكن من تقييمها والحكم عليها . وهى من العمليات ، التى تدعو إلى استنهاض المؤسسات التعليمية لكى تحقق أعلى المستويات المطلوبة فى الفاعلية والكفاءة والإنجاز والتميز .

وقد غدا هدف التميز مسألة حاسمة فيما ينتظر من الناتج التعليمى ؛ من أجل تكوين قدرات تنافسية لقوة العمل فى معترك تدافعات السوق العالمية . وفى هذا السياق تبدو أهمية الشعار القائل بأن علينا أن نفكر عالميا وأن ننفذ محليا ، وهذا لا يحول بطبيعة الحال ، دون اتباع منهج التفكير محليا والتنفيذ والتدبير محليا فى ضوء خصوصياتنا الثقافية والقيمية.

ومن المفاهيم الواردة فى الكتاب أهمية التعليم والتعلم الحوارى باعتباره من عوامل التعلم الفعال ؛ حيث تتفاعل العقول والوجدانات والقيم بين المعلم والمتعلم . هذا فضلا عن أنها وسيلة لترسيخ المنهج الديمقراطى ، الذى يجرى من خلال التساؤل المؤدى إلى القبول والنقد والخلاف والاختلاف فى الرأى ، وفى فروض المعرفة والحكم على الأشياء من خلال التعامل مع الغير ، والحوار الجاد يكون بيئة للتفكير اليقظ الناقد ، ويولد آفاق التخيل والإبداع . ولقد ميز بعض مؤرخى العلم بين المعرفة التى تتولد من خلال التجريب والمنهج العلمى Scientific فى صرامته ، وما ينبثق عن التفكير التخيلى والإبداعى Creative من خلال لمعات الاستبصار intuition ، حيث إنها كثيرا ما ولدت فكرا ونظريات جديدة وتطبيقات تكنولوجية غير مسبوقة.

ومن بين المفاهيم الجديدة التى تعرض لها المؤلف أيضا ما يعرف بالذكاء ؛ حيث جرى العرف على أنه طاقة معرفية واحدة ، تتجلى فى الفهم والتعبير عن المدركات المجردة من خلال القدرة اللفظية أو المنطقية . لكن علم النفس المعرفى الحديث ، بقيادة هوارد جاردنر Howard Gardner ، أستاذ التربية فى مدرس هارفارد للدراسات العليا فى التربية ، قد أطلق نظرية (الذكاوات المتعددة) فى كتابه المشهور بذلك العنوان (١٩٩٣) ، وقد بين فيه أن كل إنسان يمتلك إمكانة سبع طرق على الأقل فى سعيه لفهم العالم من حوله ، وهو ما أطلق عليه مصطلح (الذكاوات السبع) .. ومن ثم فإن الإنسان يستطيع أن يتعرف العالم من خلال : مهارات اللغة ، والتحليل المنطقى الرياضى ، والمدركات المكانية ، والتفكير الموسيقى ، واستخدام أعضاء الجسم لحل المشكلات ولصناعة الأشياء ، والقدرة على فهم الآخرين والتعامل معهم ، وأخيرا فهم الإنسان لذاته . ومع وجود هذه القدرات لدى كل إنسان بالقوة .. فإنها بالفعل تتفاوت بين الأفراد فى مدى ما يتاح من قوة لكل من هذه الذكاوات ، وفى الوسائل المثيرة لكل

منها أو للجمع بينها ؛ للقيام بأى من الأعمال ، أو التصدى لحل أى من المشكلات ، أو فى مدى التقدم فى مختلف مجالاته الحياتية . ولعل أبسط مثال على التباين فى قوة هذه الذكاوات لدى الأفراد ما يمكن ملاحظته من قدرة ومهارات متعلم ، يستطيع أن يقرأ بإتقان تعليمات تشغيل جهاز ، ولكنه لا يستطيع تجميع أجزائه ، بينما قد نجد أميا يستطيع أن يدرك مختلف تلك الأجزاء ، محددا لمواقعها فى تصوره لهيكل الجهاز الكلى ، ثم القيام بتركيبها فى النهاية بحيث يتم تشغيل ذلك الجهاز . ونحن هنا أمام تفاوت بين ذكاء لفظى مجرد وذكاء عملى يدوى .

والواقع أن نظم التعليم لدينا ، ولدى كثير من دول العالم الأخرى تركز فى مناهجها وطرق تدريسها وفى امتحاناتها وأساليب تقييمها للمتعلم على نمط واحد من أنماط الذكاء وهو نمط القدرات اللفظية اللغوية ، ومعها فى أحسن الحالات نمط القدرات الرياضية والمنطقية ، ونادرا ما يلتفت إلى تنوع الطلاب فى مدركات ما يتعلمونه . والمطلوب فى واقع حياة متغير وسريع التغير ، العمل على خلق البيئات والظروف التعليمية التى تستثير أكثر أنماط القدرات فى خريطة الذكاوات ، والعمل بوجه خاص على تنمية ما يتميز به الفرد من بينها ، من خلال تطوير حقيقى للبيئة المدرسية ولمناهجها وطرق تدريسها ووسائل تقييمها وأهدافها حاضرا ومستقبلا .

وفى هذا الصدد تجدر الإشارة إلى كتاب قيم آخر للأستاذ هاورد جاردنر ، عنوانه (العقل غير المتمدرس ، كيف يفكر الأطفال ، وكيف ينبغى أن تفكر المدارس) The Unschooled Mind: How Children Think & How Schools Should Think ، ولا يقتصر الكتاب فى فصوله على وصف DESCRIPTION لقضية الذكاوات ، وارتباطها بظروف مجتمع المدرسة فحسب ، وإنما تمتد فى تشابكها مع قيم المؤسسات وأولياء الأمور والرأى العام وفيما ينشده هؤلاء من نواتج التعليم فى المدرسة . ثم ينتقل من ذلك الوصف والتشخيص إلى تقديم (روشتة) Prescription لمجمل قضايا التعليم ومناهجه ومعلميه وإدارته ، من منظور الذكاوات المتعددة ؛ لاستعراض ومناقشة ما ينبغى على المدرس من أداء وإلى إيمانه العميق بأهمية التطورات والمفاهيم الجديدة فى عملية التعليم والتعلم ، والحرص فى تعليمه على معايير الدقة والانضباط والصدق ، وبذل أقصى الجهد فى كل ما يبذله المدرس والطالب ، ويرتبط

بذلك تشجيع الحوار والتساؤل إلى غير ذلك من قيم المجتمع المنتج والمتميز ، بمختلف أبعاده وتجلياته ومعانيه .

ويشير المؤلف إلى مفهوم الحاجة إلى المشاركة المجتمعية ، والتى تنقسم إلى قسمين رئيسين : أولهما المشاركة على مستوى المدرسة ، وثانيهما المشاركة فى المسيرة الشاملة للقضايا الرئيسية فى المنظومة التعليمية . فإذا أردنا تطبيق مفهوم الذكاوات المتعددة .. فإن ذلك يستوجب إقناع الطلاب والمدرسين وأولياء الأمور بمقتضيات هذا الموضوع ، منها : الاهتمام بمختلف المواد الدراسية بما فيها الأنشطة وإيجاد مواد اختيارية فى المقررات ، وتنويع الوسائط التعليمية والقراءات الحرة والواجبات المدرسية بما يتيح إشباع الاهتمامات والقدرات الخاصة للطلاب ، وتتطلب هذه المشاركة ، على مستوى المؤسسة – إلى جانب اقتناع المدرسين والإدارة المدرسية – اقتناع وإيمان أولياء الأمور بكل ما يخطط فى من جديد فى المسيرة التعليمية ، من خلال تفهم متبادل تمتد فيه المدرسة إليهم توضيحا لعمليات التجديد وأهدافها وإجراءاتها ، وبخاصة فى مغايرتها لما ألفوه من أساليب التعليم ، وعليهم من الطرف الآخر أن يمتدوا إلى المدرسة فى تعاونهم بتوضيح ذلك لأبنائهم وبناتهم ومتابعة تقدم أبنائهم أو تعثرهم فى الطريق الجديد ، هذا فضلا عما يمكن أن يسهموا به فى حل بعض مشكلات المدرسة واحتياجاتها التى يمكنهم الوفاء بها بطواعية واقتناع.

ويتلخص القسم الثانى من المشاركة التى تتطلبها المنظومة التعليمية فى إشاعة الأفكار والمفاهيم الجديدة حول أهداف التعليم فى مجتمع متغير ، وإدراك لضرورات التغيير والحوار حول مزاياه وصعوباته على المستوى المجتمعى الكبير . هذا فضلا عن الإسهام فى كل ما يمكن أن توفره الدولة والمجتمع المدنى من موارد مالية لتحسين نوعية التعليم . ويقتضى ذلك بطبيعة الحال حوارا جادا ومتصلا مع القيادات التنفيذية والتشريعية ، وعلى المستوى القومى والمحلى ، توضيحا للرؤية والسياسات وحاجات التمويل وغيرها من وسائل الدعم والتعزيز.

وليس المطلوب فى مشاركة الرأى العام أن تنصرف إلى المسائل الفنية العلمية كالمناهج مثلا ، وإنما هذه رهينة بمشاركة المخصصين فى هذا المجال ، حيث يطلب

منهم المشاركة فى تصميم المناهج وملاءمتها وحداثتها واتساقها وتكاملها ، وفى وضع الكتب المدرسية ووسائط التعليم التكنولوجى ، وفى غيرها من المسائل المهنية المتخصصة الدقيقة . والخلاصة أننا لكى ندفع بعمليات التجديد والتطوير فى حاجة قيم المؤسسات وأولياء أمور الطلاب والرأى العام فى المجتمع .. فإننا فى حاجة إلى إحداث تغيير ثقافى واع على مستوى ثقافة المدرس ، معلمين وطلابا وإدارة وموجهين، وإلى إحداث تغير ثقافى لدى الرأى العام لمساندة توجهاته ، والحيلولة دون توقف مسيرته وانتكاسه بفعل قوى المقاومة لكل جديد ، سواء من داخل مؤسسة المدرسة أو من أصحاب المصالح الخاصة أو المكتسبة فى المجتمع خارج المدرسة.

ومع الإيمان الراسخ بثقافة التغيير وإشاعتها لدى كل الأطراف المنتجة والمنتفعة بمسيرتها – والإيمان كما يقال خليق بأن يزحزح الجبال عن مواقعها – تتبقى أخيرا حقوق المعلم والثقة به ، فهو فى نهاية المطاف الطاقة المحركة والمجسدة لكل سياسات وإجراءات التطوير فى مكونات المنظومة التعليمية ، التى ترسم من المتخصصين على مستوى التخطيط والإدارة وما يصاحبها من القوانين واللوائح وغيره من مفردات النظام التعليمى . والواقع والحاصل فعلا هو أن المعلم مصدر التفاعل المباشر مع الطالب على مستوى المدرسة والفصل ؛ حيث تصل العملية التعليمية إلى خط إنتاجها النهائى . ومن ثم فهو المؤدب المباشر بالمعنى التراثى القديم ، ومن ثم يصبح من حقوقه فى العمل : مسألة إعداده وتكوينه الرصين ومتابعة تدريبه شرطا وحقا للوفاء بدوره فى التكوين الصحيح والمتكامل لطلابه . ثم يرتبط بحقوقه أن تهيأ له ظروف العيش الكريم ماديا وأدبيا والعمل فى بيئة عمل مدرسية نظيفة مادية ومتعاونة اجتماعيا. وأخيرا وليس آخرا توافر الثقة بالمعلم ، حيث ينطلق قوامها مما يحظى به من الاحترام والطمأنينة التقدير . وهذا يقتضى – ضمن اقتضاءاتها لأخرى – إتاحة القدر الملائم لحرية التصرف والمرونة فى ممارسة مهماته ، بما تمليه عليه ظروف طلابه واجتهاداته الخاصة فى تعليمهم ، وفى تفاصيل التعامل معهم فى ضوء آداب المهنة .

ويسعفنى فى هذا الصدد ما أشار إليه طه حسين فى كتابه (مستقبل الثقافة فى مصر) الصادر عام ١٩٣٨ حول مسألة الثقة بالمعلم ، وهى إشارة ما تزال واردة فى

تعليمنا وموقفنا من المعلم فى اللحظة الراهنة . وفى هذه الإشارة يوضح لنا ما قد ينجم من آثار حين يفقد المعلم ثقته بنفسه ، وإيمانه بكرامته ، وكرامة المهنة ، وقدرته على التصرف ، وشعوره بأن سلطة النظام ومراقبتها وراءه فى كل لحظة تقيد أنفاسه . ومن نتائج ذلك ما يتولد من مشاعر الخوف بينه وبين المسئولين فى السلطة ، فيقوم الشك مقام الأمن والثقة المتبادلة .. ومن ثم نجد أن هذه المشاعر قد أفسدت رأيه فى التلميذ ، فلم ينظر إليه على أنه أمانة قد اؤتمن عليها ، .. كلف بتربيته وتعهده بالرعاية والعناية .. وإنما ينظر إليه على أنه مادة للعمل الذى يعيش منه ، فيعامله معاملة المادة الجامدة الهامدة ، لا معاملة الكائن الحى ، ويصوغ تلك المادة كما تحب السلطة أن تكون ، لا كما يحب هو أن تكون ولا كما ينبغى أن تكون).

وفى هذا الجو من فقدان الثقة بين المعلم ورؤسائه ، يتابع طه حسين تشخيصه ، حيث (يصبح المعلم أداة ، وتصبح المدرسة مصنعا ، ويصبح التلاميذ مادة ، ويفقد التعليم والتربية أخص ما يحتاجان إليه من المقومات ، وهو الحياة والحب والنشاط والطموح).

أما بعد :

فتلك بعض الخواطر التى أثارها هذا الكتاب ، وهو بحق مثير لخواطر كثيرة ، قد يرضى القارئ عنها وقد يختلف معها ، لكن الكتاب فى جميع الأحوال يقدم مادة خصبة للتأمل وإعمال الفكر فى (مداخل تعليم المستقبل فى الوطن العربى).

obeikandi.com

مُقَدِّمَة

هذا الكتاب إضافة جديدة تثرى مسيرة تحديث التعليم المتنامية فى عالمنا العربى الكبير ، وترفدها بمداخل شتى ، تسخر كل ما هو عالمى لخدمة كل ما هو عربى ، وتجعلنا نفكر عالميا ونطبق محليا ، بغية تنمية إدراك التربويين العرب بالمشكلات المزمنة لأوضاع التعليم فى أقطار وطننا العربى ، وما تفرضه طبيعة العصر ورؤى المستقبل من تحديات ، وحتى يسهم التعليم بفاعلية وكفاءة فى تحقيق التنمية المستدامة فى جسم الواقع العربى ، ويشرئب إلى المستقبل ، مضيفا خبرات جديدة ونظريات وممارسات عالمية متجددة .

إن الرؤى والأفكار والقضايا التى يحتضنها هذا الكتاب تؤكد البعد العالمى فى معالجة قضايا التعليم على المستوى القومى ، وتطرح رؤى المتخصصين ، ونتائج البحوث التربوية ، وأفكار وخبرات التربويين العرب لتوفر الفكر والفعل والطاقة والالتزام بأن تعليم المستقبل العربى هو قضية حياة ومصير ، تقوم على تحرير الوعى التعليمى ، وحرفية المعلمين وصناعة المبدعين ، وتحديث مسارات التعليم فى عالم متغير، والنظر إلى الجامعة على أنها رسالة لا مؤسسة لها تحدياتها ، وسيناريوهاتها ، وخططها الاستراتيجية للتطوير .

إنها خدمة نقدمها لزملائنا التربويين العرب الساعين لصناعة التقدم ، على امتداد أقطار وطننا العربى الكبير .

وبالله التوفيق

المؤلف